فقه السياسة
تأملات في قصة فرعون

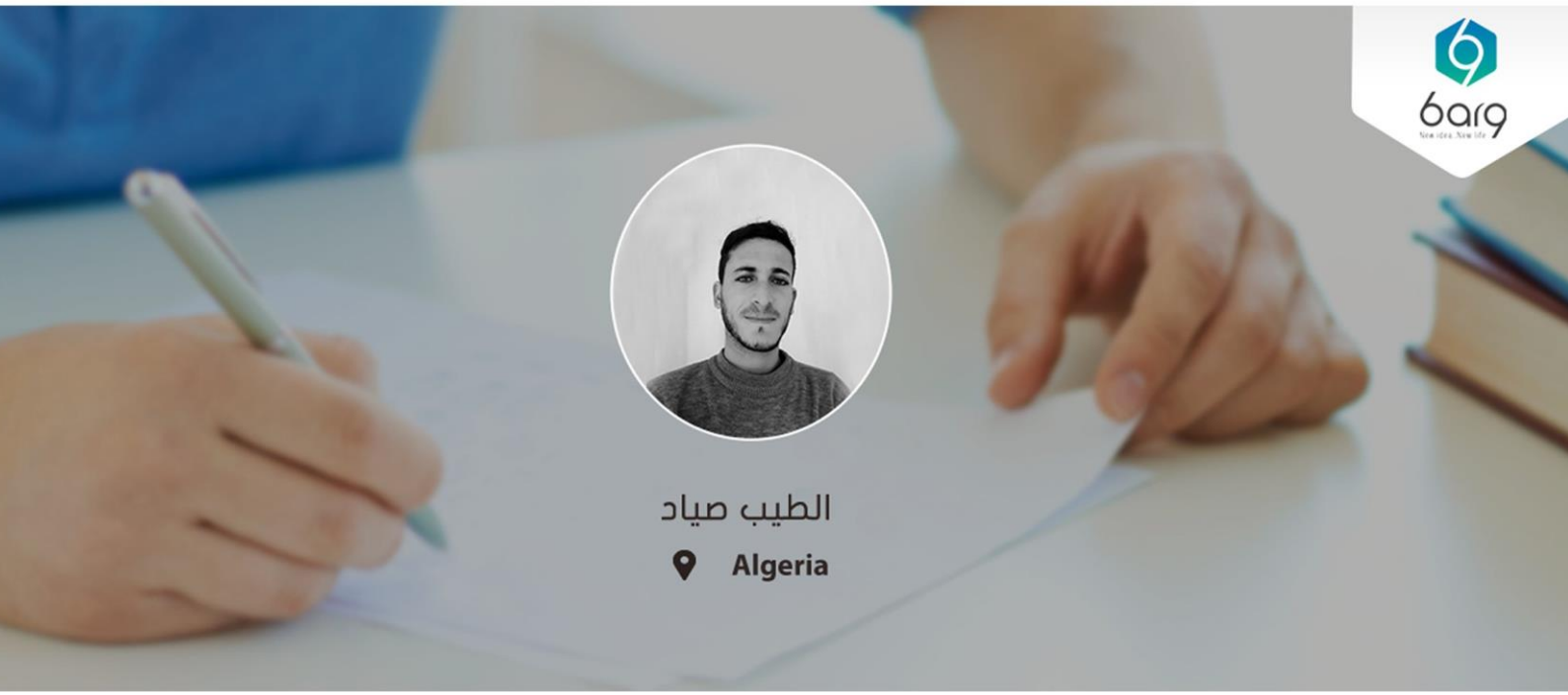

barq-rs.com
fb.com/barqrs
info@barq-rs.com
twitter.com/barq_rs

00905373505576
00902125508748
Akşemsettin, Fevzi Paşa.Cd
No:33,34080 Fatih/İstanbul

قال –سبحانه وتعالى–: "إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ؛ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ، إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ [٤] وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ [٥] وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ، وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ [٦]" **سورة القصص.**

هذه الآيات الكريمة وإن كانت تُذكِّرنا بقصة سيدنا موسى –عليه السلام– وبني إسرائيل وما لاقَوْهُ من البلاء على يد فرعون وهامان؛ إلا أنها تُشير إلى فائدة في السياسة الشرعية الواجبِ على الحاكم اتخاذُها في معاملته مع الشعب الذي يحكمُهُ، وذلك أنه لا يصحُّ للحاكم أن يُحْدِثَ "الطبقيَّةَ" في الناس، كأن يكون بعضهم أحظى من بعض في الحقوق، أو أن يكون بعضهم عُرضة للاضطهاد والتعذيب والسَّجْن والاستعباد دون غيرهم، سواءٌ كان ذلك لعرقهم أو لدينهم أو أي انتماءٍ فكري أو سياسي أو قَبَليٍّ أو غير ذلك من الانتماءات، وذلك لعموم إنكار اللَّه –تعالى– للتفريق بين الناس في عبارة: "وجعل أهلها شِيَعًا" أي: فِرَقًا، إلا أن يكون إلحاقُ الأذى حادثًا بسبب انتهاك الشخص أو الجماعة لجريمة معينة يترتَّبُ عليها الجزاء والمحاسبة بالعدل دون حَيْفٍ ولا عَنَتٍ، وإلا فإن أيَّ اعتداءٍ على جزءٍ من الشعب دون الاستناد إلى العدالة الشرعية هو ظلمٌ وطغيان وتكبُّرٌ في الأرض واستعلاء على الناس دون موجِّغ، ويترتب عليه محاسبة هذا الحاكم الظالم وعدمُ تركِهِ يسدَرُ في غَيِّهِ، والمحاسبةُ تكون بالتدرُّج من الوعظ والنصح والقول اللين، لتصل إلى المعاقبة الفعلية الرادعة والقاطعة لأسباب الظلم، وكلُّ ذلك يمكن استقاؤه بَدْءًا، من قصة فرعون وكيف بعث اللَّه إليه الأنبياء وأمرهم أن يقولوا له "قولًا ليِّنًا"، وانتهاءً بأن دمَّر اللَّه عليه ملك مصر وأغرقه في البحر وجعله لمن خلفه عِبرة.

والتكبر الفرعوني الذي به استعبد مواطنيه (الأمة المصرية القديمة بما فيها من أعراق مختلفة وبينهم بنو إسرائيل) انطلق من بواعث وهمية كان يظنها أمرا واقعا، وذلك ما نجده في رواية الإمام ابن جرير الطبري عن السدي قال: "كان من شأن فرعون أنه رأى رؤيا في منامه أن نارا أقبلت من بيت المقدس حتى اشتملت على بيوت مصر فأحرقت القبط، وتركت بني إسرائيل وأحرقت بيوت مصر، فدعا السحرة والكهنة والقافة والحازة فسألهم عن رؤياه فقالوا له: يخرج من هذا البلد الذي جاء بنو إسرائيل منه –يعنون بيت المقدس– رجل يكون على وجهه هلاكُ مصر، فأمر ببني إسرائيل أن لا يولد لهم غلام إلا ذبحوه، ولا تولد لهم جارية إلا تُركت، وقال للقبط: انظروا مملوكيكم الذين يعملون خارجا فأدخلوهم، واجعلوا بني إسرائيل يلون تلك الأعمال القذرة، فجعل بني إسرائيل في أعمال غلمانهم، وأدخلوا غلمانهم، فذلك حين يقول: (إن فرعون علا في الأرض وجعل أهلها شيعا) يعني بني إسرائيل حين جعلهم في الأعمال القذرة". **(الطبري، تفسير الطبري، دار هجر، مصر، ١٨/ ١٥١)**

هذا النص يشتمل على عدة نقاط ينبغي تسجيلها فيما يتعلق بموضوعنا:

• أن الحاكم الديكتاتوري (وهو فرعون هنا) رغم عظمة الملك الذي بين يديه و شدة سطوته على ال شعب (الرعية) فإنه يبقى خائفا من ردة الفعل المحتملة من قِبَلهم، لأنه على يقين من أن الظلم الذي يمارسه عليهم سيكون له ردة فعل بـ صورة أو بأخرى، وهذا راجع إلى الطبيعة الإن سانية التي ترفض القوة التي يمار سها الحاكم، وأن ال صبر الظاهر من الرعية ما هو إلا حالة مؤقتة تزول في وقت قريب لتتحول إلى ثورة ضد الهيمنة والظلم.

• أن الحكم الديكتاتوري يتخوف أصحابُهُ حتى مما لم يحدث بعدُ، ففرعون لم يشهَدْ ثورةً ضد حكمه وإنما رأى رؤيا في نومه وفسَّرها له الكهنةُ بأنهم يتوقعون حدوث ثورة ضد نظام الحكم الفرعوني، وفعلا سارع الديكتاتور بتصديقهم وآمن إيمانا مطلقا بالتحذير الذي أخبروه به في تفسيرهم للرؤيا.

• يبدأ الحاكم المتـ سلِّط في تنفيذ إجراءات ا ستباقية تتميز بالقمع ضد المعارَ ضة المحتملة (قتل وذبح أولاد بني إســرائيل) واســتمالة القوة الشــعبية المؤيدة في الظاهر (إعطاء وظائف محترمة لأبناء القبط)، وهذا التفريق بين طبقات الشعب (الرعية) هو الموصوف في الآية بـــ "وجعل أهلها شيعا"، وهو الجزء الذي ركز عليه السدي في تفسيره في كيفية معاملة فرعون لأهل مصر.

• غالبا ما يكون للحاكم الديكتاتوري نخبة مقرَّبة من مختلف المجالات (شــيوخ دين، مثقفون، علماء في ميادين مختلفة ..) وذلك وا ضح جدا في نص ال سدي، وهؤلاء قد ضمنوا م صالحهم المادية من الحاكم فلا يهتمُّون بمكانتهم بين الطبقات الشــعبية الأخرى، ولا يُبالون بالآراء والاقتراحات التي يُقدِّمونها للحاكم مهما كان أثرها الســلبي على الشعب، لأن الذي يهمهم هو ضمان مصالحهم وامتيازاتهم.

يبدأ الديكتاتور في إ سقاط حكمه بنف سه بناءً على تخيُّلات وأوهام لم تحدث بعد، أو على حوادث بـ سيطة متفرقة لكنها تمثل في نظره خطرا اســتراتيجيا على نظام حكمه القمعي، وهذا يُعَدُّ ترجمة عملية لمبدأ شــرعي إنســاني تاريخي وهو: "أن الظلم مؤذن بخراب العمران" وهي عبارة الإمام ابن خلدون والتي جعلها عنوانا لأحد فصــوله حيث يقول في بيانها و شرحها: "اعلمْ أن العدوان على الناس في أموالهم ذاهبٌ بآمالهم في تحـ صيلها واكتـ سابها لِمَا يرونه حينئذ من أن غايتها ومَ صيرها انتهابُها من أيديهم، وإذا ذهبتْ آمالهم في اكتـ سابها وتحـ صيلها انقبـ ضتْ أيديهم عن الســعي في ذلك .." **(ابن خلدون، ٢٠٠٤، المقدمة، دار يعرب، ١/ ٤٧٧)** ثم ينقل قصــة عن المؤرخ المســعودي في الفو ضى التي عمَّت بلاد الفرس أيام "بهرام بن بهرام"، وعقَّب ابن خلدون على ذلك بقوله: "فتفهم من هذه الحكاية أن الظلم مُخرِّب للعمران، وأن عائدة الخراب في العمران على الدولة بالفساد والانتقاص" **(المرجع نفسه، ١/ ٤٧٨)**

ولر صد معنى هذه العبارة الخلدونية من خلال الآيات الأولى في قـ صة فرعون يمكن تـ سجيل هذا التـ سل سل الزمني للأحداث الكبيرة والتي تنطلق من الظلم وتنتهي إلى الخراب، كما يلي:

• العلو في الأرض، ويتمثل في مظاهر التكبر على الناس والتسلُّط في الحكم والاستهزاء بالآخرين والكبر، وفي الحديث النبوي الذي يفسر معنى "الكِبْر" نجد أن السائل سأل النبي – صلى اللَّه عليه وسلم –: يا رسول اللَّه إني رجل حُبِّب إليَّ الجمال وأُعطِيتُ منه ما ترى، حتى ما أحب أن يفوقني أحد بشـــسـع نعلي، أفمِن الكِبْر ذلك؟ فأجابه النبي –عليه السلام– قائلا: "لا، ولكن الكبر من بطر الحق وغمط الناس" **(رواه أبو داود برقم: ٤٠٩٢)**، فأوضح بجوامع الكلم أن الكِبْر له مظهران:

١- بطْر الحق، ويعني رفض الحق وإلغاؤه، والحق سواءٌ كان حق اللَّه أو حق الناس، فمن رفض الحق الإلهي أو الحق الإنساني فقد بطر الحق وألغاه ورفضه وبذلك يُسمَّى متكبرا.

٢- غمط الناس، والغمْط في اللغة أصله من الجحد مع سبق المعرفة بالمجحود، وله معنى آخر أيضا وهو الازدراء والاحتقار وكلاهما وارد في شرح الحديث ومناسب للسياق.

• جعل الناس شِيَعًا، وهو المبدأ الاستعماري "فَرِّقْ تَسُدْ"، فهناك مرحلة التكبر على الحق وعلى الناس تأتي بعدها مرحلة التفريق بينهم وجعلهم أحزابا وطوائف على أســس مختلفة (عرقية، مذهبية، مناطقية ..) وإحماء جمرة التعصب الطائفي العرقي وفي هذا يشتغل الناس بمنابذة بعضهم بعضا والاحتراب فيما بينهم، وفي هذا مصلحتان للحاكم الديكتاتوري:

١- أن اهتمام الشعب سينتقل من التركيز على فساد السلطة إلى التركيز على الاحتراب بين الطبقات الشعبية المغلوبة، فكل من يحقق انتصـارًا سـيكتفي بذلك الانتصـار المزعوم دون الالتفات إلى سـبب المشـكلة الاجتماعية أصلا.

٢- أنه يكون بمثابة القاضـي العادل بين الطبقات المتصـارعة، فأذرعه القضـائية والأمنية هي ملجأ المستضعفين الذين يتقاتلون فيما بينهم، فكل من فاز بحظوة لدى تلك الأجهزة فهو المنتصر في الاحتراب الاجتماعي.

• التوجس الذي يعيشـه الحاكم الديكتاتوري من جراء الفوضـى الاجتماعية يجعله يتوقع حدوث ثورة عليه في أي وقت، لذا يلجأ إلى اسـتحداث أسـاليب قمعية اسـتباقية لتخويف الناس حتى يجعلهم لا يفكرون مطلقا في تغيير النظام (إرهاب الدولة)، وهذا ما فعله فرعون ببني إسرائيل حيث ذبَّح أبناءهم ورمى برجالهم إلى الوظائف الوضيعة حتى يعيشوا أزمة اقتصادية واجتماعية مزرية تجعلهم بعيدين كل البعد عن علاج الفساد الموجود في الطبقة الحاكمة، وهذا ما يُسمى بسياسة التجويع والتخويف.

- الاحتقان الشعبي الناتج عن شدة القهر الذي يمارسه الديكتاتور سيصل إلى ذروته، وبالتالي تحدث ردة فعل كبيرة جدا ضد النظام التسلُّطي الذي سيكون له خياران فقط:

١- إما مواجهة الثورة الـ شعبية بالقوة، وهذا يعني أنه لا أحد يهنأ بالحياة الكريمة لا الحاكم ولا المحكوم إلى حين الانتصار الفعلي لأحد الأطراف.

٢- وإما الاستسلام المبكر وتسليم الحكم للقيادات الثورية التي ستبتُّ في أمر الظالمين وأعوانهم حسب القوانين المعمول بها في ذلك البلد.

هكذا تكون دورة النظام القمعي الذي أشـــاع الظلم ورفض إقامة العدل، وهذه الحقائق التي يمكن لدارس التاريخ رصدُها؛ قد أوضحتها الآيات القرآنية الكريمة في سورة "القصص" بصورة واضحة لمن يتأملها ويتدبرها على وفق ما تقتضيه اللغة وأصول التفسير ومبادئ العقل.

جميع الحقوق محفوظة لدى مركز برق للأبحاث والدراسات © 2017

"الآراء الواردة في المقال لا تعبر بالضرورة عن وجهة نظر مركز برق للأبحاث والدراسات "